The Image of the Addressee Accused in Ancient Arabic Rhetorical Texts: An Analysis of Speeches from the First Islamic Era

Dr. Noura GRAYAA[1]

Higher Institute of Languages,
Carthage University, Tunisia

Science Step Journal / SSJ

2024/Volume 2 - Issue 6

doi: https://doi.org/10.6084/m9.figshare.27569412

To cite this article: Grayaa, N. (2024). The Image of the Addressee Accused in Ancient Arabic Rhetorical Texts: An Analysis of Speeches from the First Islamic Era. Science Step Journal II (6), 253-269. ISSN: 3009-500X.

Abstract

This article explores how the addressee is portrayed in a particular genre of Arabic rhetoric, where the speaker focuses on holding the addressee accountable—essentially putting them "on trial" and making accusations. This dynamic creates a vivid image of the accused, enriched with unique artistic and semantic layers. As a result, these rhetorical texts move beyond rigid political discourse and traditional persuasive arguments, opening up new possibilities for understanding their literary value, which extends beyond mere historical or rhetorical analysis.

In the first section, we delve into the various ways the addressee is referenced and the meanings these references convey. We also identify the accusations made against the addressee, whether directly or indirectly. Additionally, we examine the techniques used to depict the addressee and convey their different statuses, shaping their literary image through both descriptive and narrative approaches. This process allows the addressee to take on symbolic meanings that may exceed the apparent intentions of the text, sometimes even contradicting them.

By employing this approach to study the image of the addressee in these ancient rhetorical texts, we open up new avenues for exploring both ancient and modern rhetoric, drawing on fresh perspectives from genres, semiotics, and linguistics.

Keywords: Addressee, Discourse, Arabic Literature, Rhetoric, Image, Semantics

[1] Assistant Professor of Higher Education, Higher Institute of Languages in Tunisia
grayaanoura@yahoo.fr

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

صورة المخاطب مُتّهما في النّصوص الخطابية العربية القديمة
من خلال نماذج من خطب العصر الإسلامي الأول
(خطبة عثمان بن عفان[2] حين نقم عليه النَّاسُ ما نقموا ، خطبة الجهاد لعليّ بن أبي طالب،[3]
و خطبة الحجّاج بن يوسف حين وُلّي على الكوفة[4] نموذجا)

دة. نورة قريع

المعهد العالي للغات، جامعة قرطاج
قرطاج،:تونس

ملخص:

وفرت يتناول المقال تَمَظهُرات المخاطَب في نمط مخصوص من الخطب العربية. وهي خُطَب تميَّزت باستهداف المتكلّم للمخاطَب والتَّركيز عليه محاسبة "ومحاكمة" واتّهامًا. وهو ما يخلق صورة معيَّنة للمخاطَب المُتَّهم ويكْسبُه أبعادًا فنِّية ودلاليَّة مميَّزة. ومن ثم يكتسب هذا النّمط من النُّصوص الخَطابيَّة قيمةً أدبيَّة تُخرجها من نطاق الخِطاب السِّياسي الجَاف والمَقصَد الحجَاجي الإقناعيّ الذي دأب الباحثون على التماسه منها فضلا عن إخراج هذه النّصوص من دائرة المباحث التَّاريخيّة والبلاغيّة المحضة.

وقد التمسنا صورة المخاطَب مُتَّهما انطلاقا من تحديد تجلّيات هذا المخاطَب في النُّصوص المدروسة وقد استعرضنا في القسم الأول من المقال مسالك الإحالة على المخاطَب واستقرأنا دلالات تلك المسَالك، ثم بيّنّا جملة التُّهم التي وُجِّهَت إلى المخاطَب بصفة صريحة مباشرة أو بصفة غير مباشرة. وانتقلنا بعد ذلك إلى تتبُّع الأساليب والطّرق التي اعتُمدت في تصوير المُخاطَبين وكيفيَّات التّعبير عن أحوالهم المختلفة وتشكيل صورتهم تشكيلًا أدبيّا عبر الخِطاب الوصفيّ والخطاب السَّردي ممّا أفضى إلى تلبُّس المُخاطَب بدلالات وأبعاد رمزيَّة تتجاوز حدود المقاصد الظَّاهرة المُعلنِ عنها في النَّص بل قد تُخالفها وتُناقضها.

إنَّ المدخل الذي اخترناه لدراسة صورة المخاطَب في نمط من أنماط النُّصوص الخطابيَّة القديمة يفتح آفاقا مختلفة للبحث في أدب الخَطابَة قديما وحديثا من وجهات جديدة أجناسيَّة وسيميائيَّة ولسانيَّة.

الكلمات المفتاحية: المخاطَب، نص خَطابي، أدب عربي، خَطابة، صورة، دلالات

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية، بيروت ، د.ت. الجزء الأول: ص. 273
[3] أبو عثمان الجاحظ، البيان والتّبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ت ص. 36
[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص. 28

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

المقدّمة:

لئن تعدّدت وجوه الخطاب وتجلّياته وتنوّعت سياقاته، فإن مكوناته الأساسية ظلت ثابتة: المتكلم - الخطاب - المُخاطَب، وإذا كان عنصرا المتكلِّم والخطاب يتّخذان أشكالا مختلفة ويتغيّران بتغيّر نمط الخطاب وجنس الكتابة أو الكلام عموما فإنّ عنصر "المُخاطَب" ظلّ مُحافظا على درجة من الثّبات في مفهومه العامّ باعتباره المُوجَّه إليه الكلام مهما كان نوع ذلك الكلام وصيغته، وهو يتميز عن العنصرين السّابقين بإمكانية اختفائه وإضماره في النّص مع وجوده بالضرورة قراءة وتأويلاً.

إلّا أنّ هذا العنصر - على الرغم من بداهة ارتباطه بالخطاب وضرورة أخذه بالاعتبار عند التّحليل والاستقراء لأيّ نص أدبيّ قد تخفى على الدّارس مواضعه والمداخل إلى قراءته ذلك أنّه يتّخذ وجوها متعددة للتجلي ويُنظَر إليه من زوايا مختلفة حسب مقاصد الباحثين ومقارباتهم.

- فَتَجلّيهِ المَادّي اللّغوي يتحدد بضمائر الخطاب المحيلة عليه والصّيغ الأسلوبية المباشرة الموجّهة إلى المخاطب والأفعال المسندة إلى ضمائر الخطاب بالإضافة إلى الصفات الواسمة للمُخَاطَب المُبَاشر.

- أمّا تجلّيه المعنوي الدّلالي فيتولد عن القراءة الشاملة للنّص وتأويل العلاقات بين عناصره بما في ذلك علاقة القائل بالمَقول له وعلاقة القول بكل من القائل والمَقول معا.

وهذان التجلّيان المُبسّطان يتخذان أبعادا أكثر تعقيدا بتعقّد تركيبة النصوص المدروسة والتباس أشكالها وتداخل أجناسها، ونحن هنا إنما نخصّ بالذّكر النصوص الأدبية حيث يتجاوز مفهوم التخاطب كونه "تصرّف المتكلّم في اللغة بحسب علاقته بالمُخاطب"[5] وفي هذا السّياق يتنزّل اهتمامنا "بالمُخاطَب" وصورته في النّصوص الخطابيّة عموما وفي صنف منها بالذّات يتميّز بطابع أدبي بارز.

ويكتسب "المخاطَب" أهمية خاصة في النصوص الخطابية نابعة في مقام أوّل من المعنى المزدوج لمفهومه باعتباره يحيل في مستوى أوّل على المُتَلَقي لِلخطبة التي أُلقيت شفاها، مقترنة بملابساتها المكانية والزمانية المخصومة ومن بين هذه الملابسات الجمهور الحاضر ساعة إلقاء الخطبة وعلاقته بالخطيب بالإضافة إلى دواعي إلقاء الخطبة أو مناسبتها. وتحيل في مستوى ثان على ذات "ورقيّة" أو "نصّيّة " مرتهنة بالنصّ الّذي وصل إلينا مكتوبا، وهي ذات تتحدّد ملامحها من خلال ملفوظ النص وأساليبه وآليّات التّعبير فيه. وفي هذا المستوى فإن الصورة التي ستنجم عن هذا النص هي صورة مرتكزة على وجوه القراءة ومسالك النظر إلى النص وتحليله.

وعلى هذا المستوى الثاني مدار مقالنا هذا إذ هو محاولة لملء فراغ في البحوث المتعلّقة بالنص الخطابي العربي القديم، إذ لاحظنا - كما لاحظ قبلنا بعض الباحثين في الأدب العربي القديم - اقتصار أغلب الدارسين لهذا الجنس القولي المخصوص، على تناول الخطبة

[5] صالح بن رمضان الرسائل الأدبية مشروع قراءة انشائيّة، منشورات كلّية الآداب بمنوبة، 2001 ص. 127

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

الواصلة إلينا مكتوبة تناولا محدودا معتبرين إياها "منتوجا نصّيا أو آثارا ملموسة ولم يتجاوزوا ذلك إلى النظر في خصائص التخاطب الأدبي التي صبغت هذا المنتوج، وأثمرت هذه الآثار."[6]

وقد توجهوا بالأساس إلى دراسة قيمة الخطبة باعتبارها وثيقة تاريخية من جهة، ونموذجا لبلاغة القول عموما من جهة أخرى، واقتضى ذلك التركيز على شخصية الخطيب وطرق التبليغ والإقناع، في حين لم يحظ المخاطَب باهتمام خاص من الدّارسين والباحثين في أدب الخطابة. إذ أن تركيزهم على مضامين النصوص الخطابية دون صيغها وفنياتها أوقعهم في وهم مطابقة الخطاب للواقع.. والحال أن هذه النصوص وقد وصلت إلينا مكتوبة، أضحت - بحكم خضوعها لسلطة القراءة وخروجها من حيّز الظّروف القوليّة المحيطة بالإنتاج الشفوي للنص- مادة أدبية تستدعي إجراء أدوات القراءة والمفاهيم الجديدة المتعلّقة بتحليل النصوص الأدبية واستقراء الدّلالة الكامنة فيها.

وقد أفضت المقاربات الجديدة فى تحليل الخطاب وقراءة النص الأدبي بالخصوص إلى تحوّل في قيمة عناصر الخطاب وإعادة النظر إلى عنصر "المخاطَب" الذي كان مغمورا قليل الشأن عند الباحثين في مجال الأدبية، وقد شمل هذا الوعي أصناف النصوص جميعها. وهو الأمر الذي عبّر عنه عبد الفتاح كيليطو بقوله: " إننا في بحوثنا كثيرا ما نهمل دراسة المخاطَب ولا تنتبه إلا إلى العلاقة بين المتكلم والخطاب وذلك لأننا نفترض أنّ المتكلّم موجود في الخطاب ونفترض أنّ المخاطَب لا يوجَدُ إلّا خارج الخطاب، ولكن يكفي أن نحلّل بدقة خطابًا ما ليتبيّن لنا أنه يرسم صورة واضحة للمخاطَب."[7]

وعلى هذا الأساس كان اختيارنا لدراسة المخاطَب في النّص الخطابي نابعا من اقتناعنا بأن القيمة الأدبية للنص الخطابي جديرة بأن تُكشف عبر مسالك بحثيّة تأخذ في الاعتبار أن هذه النصوص إنما أُعيد تأليفها كتابيًّا ووقع انتقاؤها لتميّزها بخصائص تجعلها تتجاوز قيمتها التوثيقية والبلاغية الصِّرفة. وقد رأينا أنّ بعض النصوص الخطابية قد ارتفعت فيها درجة الأدبية إلى حدّ يسمح بإدراجها ضمن صنف مخصوص من الأدب الخطابي، ووجدنا أن حضور المخاطَب البارز من تلك النصوص قد أسهم في خلق دلالاتها الفنية، وإكسابها قيمتها الأدبية.

واختصصنا نمطا من أنماط النصوص الخطابية بالنظر، وهي النصوص التي كان فيها المخاطَب موضوعا أساسيا للكلام بسبب موقف سلبي من المتكلّم جعله يضعه موضع الاتّهام. وهو ما يقتضي توظيفا مخصوصا للكلام وطرق التعبير واجتهادا إضافيا في تجويده وشحنه بانفعالات المتكلّم الذي سيحاول تشكيل صورة للمخاطب تعكس رؤيته للواقع والوجود، بقطع النظر عن مطابقة تلك الصورة للحقيقة.

[6] صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ص 7

[7] عبد الفتاح كيليطو الأدب والغرابة، دار توبقال للنشر، الطّبعة الثالثة ، 2006 ص. 50

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

I. تجلّيات المخاطَب مُتَّهَمًا في النصوص الخطابيّة المدروسة:

إن صفة "المتّهم" تندرج في سياق دلالي مخصوص يقتضي وجود مقام معيّن هو مقام المحاكمة والمحاسبة، وهو أيضا يحيلنا ضمنيا إلى ربط الاتّهام بالعقاب، لاسيما إذا كان المُتّهِم يمتلك أدوات العقاب. فما هي التهم الموجّهة للمخاطب؟ وكيف تعدّى الأمر من المحاكمة والمحاسبة الى المحاربة في ظل صراع قوتين مُتَضَادَّتين: قوّة السّلطة القامعة وقوّة التّمرّد والعناد؟

وقد اخترنا لاستجلاء هذه الصّورة نماذج ثلاثة من الخطب العربيّة القديمة تتمحور حول مُخاطَب مُتّهم مغضوب عليه. واتّسم فيها الخطاب بنسق عدائي يراوح فيه المتكلم بين اللوم والهجاء والتهديد. وتندرج هذه الخطب الثلاث ضمن نمط من الخطب أدرجه بعض الباحثين ضمن ما سمّوه "بالخطبة الرّدعيّة"، وهو جنس "لا يعتمد الإقناع والمحاججة بقدر ما يرمي إلى تحويل المُخاطَبين من وضع سلوكي إلى آخر."[8]

1) مسالك التجلي:

تجلى المُخاطب في النماذج النصية التي اخترناها عبر مسلكين:

أ- الإحالة على الذّات المخاطَبة إحالة صريحة

ب- الإحالة الضمنية غير المُباشرة.

وقد اعتمدنا في استجلاء تمظهرات حضور المخاطَب في النّصوص المدروسة مسلكا لا نقتصر فيه على الفهم المحدود لعنصر المخاطَب والمقصد الظّاهر من توجيه الخُطبة إليه، بل وضعنا في الاعتبار أدبيّة هذه النّصوص وذلك يعني أنّ "المُخاطَب" المَقصود ليس ذلك "الجمهور" المُتلَقّي للخطبة على الحقيقة، بل صورته باعتباره ذاتا رمزيّة ترسمها ملفوظات النّص وتحدّد مواقعها ودلالاتها وعلاقاتها بسائر المكوّنات النّصّيّة الأخرى.

أ - مظاهر الإحالة الصّريحة:

والمقصود بالإحالة الصّريحة الملفوظات الدالة على المُخاطَب الموجّه إليه القول وتتمثل هذه الملفوظات في:

- ضمائر الخطاب المتصلة أو المنفصلة، وقد وردت في النصوص المدروسة في صيغة الجمع. ووجدناها طاغية مُهَيمِنَةً على الخطاب دون غيرها من الضمائر لا يضاهيها إلّا ضمير المتكلم.

والميزة الخاصة الغالبة على هذه الضمائر في الخطب الثلاث، هيمنة الضمائر المتصلة على المنفصلة (أنتم) وأغلب الضمائر المتّصلة وردت إمّا مفعولا به ومن أمثلتها:

[8] صالح بن رمضان، الرّسائل الأدبيّة ص. 265

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

- عثمان: وطِئَكُم- ضربِكم
- عليّ: دعوْتكم - أمرْتكم - لَمْ أَرَكُمْ - لَمْ أَعْرِفكُم.
- الحجّاج: رماكم - لألحُونّكم

وإمّا مُجرورا:

- عثمان: لَكُم
- عليّ: عليكم

وإما مضافا إليه أو اسم ناسخ:

- عليّ: تفرقكم عن حقكم - كنتم
- الحجّاج: لأنّكم

وفي المقابل وردت الضمائر المنفصلة في مواضع قليلة جدا كما في قول عليّ: "أنتم والله من السيف أفرّ."

إنّ التجلّي المخصوص لضمائر الخطاب في النماذج الثلاثة يحمل دلالة رمزية واضحة يتجلى فيها المُخاطَب مفعولا به تابعا لا متبوعا مجرورا خاضعا وتتعزّز هذه الدلالة بتأمل المخاطب ضميرا أُسْنِدَت إليه الأفعال.

- المخاطب مسندا إليه الأفعال:

تكَثّفَت في النصوص الثلاثة الأفعال مُسنَدَة إلَى المُخَاطَب ضميرًا وشكّلت في كل نص ركيزة من ركائز الخطاب الأدبي بتوظيف هذا الإسناد لخلق جمالية معينة نكتفي في مرحلة أولى بترسّم مظاهرها العامة لأننا سنعود إليها في العناصر اللاحقة للمقال. وقد اتخذنا لإبراز هذه الخصوصية بعض الأمثلة البارزة.

ففي خطبة عثمان بن عفان: اعتمد الخطيب بكثافة المقابلة بين أفعال المخاطَب وأفعال الآخرين وأمثلة ذلك في نصّ خطبته:

- يُظهِرُون لكُم ما تُحبُّون.
- يُسِرُّونَ ما تَكْرَهُونَ.
- يَقُولُون لكُم وتَقُولُون.

وهذا يُفضي إلى إبطال فاعلية المخاطَب إذ أن الأفعال المُسْندة إليه، وإن كان هو فاعلها، فهي مُرتهنة بأفعال الآخرين تابعة لها أو هي مجرّد ردَّة فعل تصلُ إلى حدّ التّطابق التّام مع أفعال الآخرين المُعارضين وبالتّوازي مع إبراز سهولة الانقِياد يعقد الخطيب مقابلة بين موقف المُخاطَبين من الحاكم السّابق ومواقفهم منه، إذ كان الخُضوع والطّاعة مُرتبطَيْن بابن الخطّاب رغم سوء مُعاملته أمّا الجرأة والتّمرّد فكانا من نصيب الخَطيب رغم معاملته اللّيّنة. ويبدو هذا التّقابل على النّحو التّالي:

أقررتُم لابن الخطَّاب ≠ نقمتم عَلَيَّ ≠ دِنْتم له ≠اجترأتم عَلَيَّ

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

وإذا كانت الأفعال هنا مرتهنة بأفعال الآخر (الغائب أو المتكلم) فإن أفعال الأمر تقتضي بداهة أن يكون المخاطَب أصلا في موضع المفعولية وإن كان لُغَويًّا فاعلا. وقد تكثّفت في الخُطب الثّلاث الأوامر والنّواهي المُوجّهة إلى المُخاطبين. كتلك الواردة على لسان عُثمان: "كفّوا عليكم ألسنتكم" وعلى لسان علي: "اغزوهم قبل أن يغزوكم" وقول الحجّاج: "فاستوسقوا واعتدلوا ولا تَميلوا واستمعوا.."

وحضور الأوامر والنّواهي بكثافة يكشف سلطة المتكلّم على المخاطب وتعاليه عليه بقطع النظر عن المطلوب منه.

وتميّزت خطبتا عليّ بن أبي طالب والحجّاج بن يوسف بارتكاز الأفعال المسندة إلى المخاطَب على مفارقة تبْطل بمقتضاها إيجابية الفعل الظاهريّة بسبب أثرها السلبي وليس الإيجابي فيما تقع عليه من متبوعات. ففي خطبة عليّ بن أبي طالب يعتمد هذا الأخير أفعالا وصفيّة تُبَيّن الأثر السّيّء للمخاطَبين بقوله: " لقد مَلَأْتُمْ قلبي قبحا وشَحَنْتُمْ صدري غيظا وأفسدتُم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان"[9] أمّا الحجّاج بن يوسف فيُصور انغماس القوم في الفساد والضّلال بقوله: " طالما أَوْضَعْتُم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغيّ."[10]

وفي المثاليَين السّابقيْن يبدو التعارض البارز بين الفاعلية اللّغوية للضمائر العائدة على المخاطَب التي أُسْنِدَتْ إليها الأفعال وسلبيّة القيمة التي تعبّر عنها تلك الأفعال المسندة إلى هذه الذات بالنّظر إلى أثرها السّيء في ذات المتكلّم.

- المُخاطب مُنَادًى ومَهْجُوًّا هجاءا مباشرا:

اختصّ توجيه النداء للمُخاطبين في هذا النمط من النصوص الخطابية باقترانه بالهجاء، و برزت هذه الظاهرة خاصة في خطبتَيْ عليّ بن أبي طالب والحجّاج بن يوسف، و أمثلة ذلك:

- في خطبة عليّ : "يا أشباه الرّجال ولا رجال "
- في خطبة الحجّاج: " يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق"

و من شأن هذه الخصوصية أن ترسم صورة متدنّية للمخاطَب ، إذ أن الهجاء المباشر بحضور الطرف المَهجُو يَسِمُه بسِمات المذلّة والمهانة بما أنّه ليس له مجال الرّد أو الاعتراض. وهو ما لا يسمح به المقام الخطابي مثله في ذلك مثَلُ المقام التّرسّلي. واعتماد الهجاء وسيلة للتعبير عن موقف المُتكلِّم من المُخاطَبين يَسم الخطاب بطابع أدبي فنّي حيث تتشكّل صورة المُخاطَب تشكيلا فنّيّا خالصا فضلا عمّا يضفيه الخطاب الهجائي على النّص الخطابي من بعد انفعالي و طابع ذاتي، حين يقرن الخطيب هجاء المُخاطبين ووصف أعمالهم الدنيئة بعبارات الاستياء والاستهجان كما هو الحال في خطبة عَليّ حين تَحَوَّلَ خطابُه إلى سبّ وذمّ للمخاطبين بقوله:" فقُبْحا لكم و ترحًا حين صرتم غَرَضًا يُرمى، يُغار عليكم ولا تَغيرُون وتُغزوْن ولا تَغزُون."

[9] خطبة عليّ

[10] الحجّاج بن يوسف

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ويتجلى من خلال حضور المخاطَب عبر الخطاب الصّريح تراوح صورته و تجاذبها بين قطبي الفاعلية والمفعولية من جهة ، و النموذج المنبوذ في مقابل النموذج المطلوب، من جهة أخرى.

ب - الإحالة الضمنيّة:

وتتجلى من خلال تلميح المتكلّم لِلمُخاطَب وصفاته دون توجيه خطابه إلى ضمير المخاطَب مباشرة.

وإنّما عبر توخّي سُبُل التّعميم والإشارة الضّمنيّة إلى صفات المُخاطب والتّهم المُوَجّهة إليه.

وفي هذا السياق تبرز ثلاثة مسالك للإحالة غير المباشرة على المخاطَب:

- التلميح إلى أحوال المخاطَب تَعميما دون تخصيص كحديث عثمان بن عفان عن آفات الزمان وعاهة هذه الأمّة في مقدّمة خطبته "أمّا بعد، فإن لكلّ شيء آفة وإنّ لكل نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النّعمة، عيّابون ظنّانون ... "

ولا يخفى على النّاظر هنا أن المخاطَب مشمول بخطاب التّنديد وأنّه جزء من "عاهة النعمة " و"آفة الأُمّة" التي ذكرها المتكلّم.

وفي خطبة عليّ بن أبي طالب ارتسمت خلف سطور المقدّمة صورة المخاطَب المناقضة لما هو مأمول والمطابقة لما هو مذموم عند المتكلّم الذي استهلّ خطبته بحديث يبدو عامّا عن الجهاد وفضائله وما ينتظر القائمين به من ثواب والتّاركين له من عقاب "أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه وهو لباس التّقوى ودرع الله الحصينة (..) فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّة وشِمِلَّةَ البلاء."

ويُفهم القصد الخفيّ للمتكلم من هذه المقدمة اعتمادا على ما سيأتي مباشرة بعدها، وفيه يُذَكّر المتكلّم المخاطبين بما سبق من دعوتهم إلى الجهاد والغزو ورفضهم ذلك حتى غزاهم الأعداء ونكّلوا بهم وبنسائهم فكانت هذه الصورة بمثابة التطبيق الواقعي للخطاب الوعظي العام الوارد في مقدمة الخطبة.. ويعني ذلك أنّ المُخاطَب يُمثل النموذج الأمثل لأولئك الذين تركوا الجهاد فشملتهم الذلّة ولبسهم البلاء.

- التلميح مجازا:

وهنا ظهرت الإحالة إلى المخاطَب عن طريق أسلوبين مجازيّين:

- التّشبيه: كتشبيه عثمان ابن عفان للمخاطبين بالإبل في قوله "وزَجَرَكُم زَجر النّعام المُخزّمة" وتشبيه عليّ بن أبي طالب لأصحابه بالأطفال والنساء في قلّة العقل بقوله: "حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال." وتشبيه الحجاج لهم ب "غرائب الإبل" وتشبيههم بـ "أهل قرية كانت آمنة (..) فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون."
- الاستعارة: ويتجلى ذلك من خلال مثالين:

- في خطبة عُثْمان في قوله متحدثا عن سياسة عمر بن الخطاب مع المخاطَبين: "ولكنَّه وطئكم برِجله وضربكم بيده.. وزجركم زجر النّعام المخزّمة." وفي هذه الصورة المجازية وقع تجسيد المخاطَبين في شكل كتلة محسوسة واحدة تتلقى الركل والضرب من الحاكم دلالة على استكانتهم وخضوعهم غير المشروط.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

- والمثال الثاني ورد في خطبة الحجّاج بن يوسف في قوله: "إنّي لأرى.. رؤوسا قد أينعت وحان قطافها." وإذا كان المثال الأوّل قد رسم صورة المخاطَب في الماضي ولمّح إلى الوضعية المُهينة التي كانوا عليها آنذاك فإنّ المثال الثاني قد قرن بين الماضي والحاضر والمستقبل باعتباره يلمّح إلى وصول المخاطبين إلى الدرجة القصوى من التمرّد والتّمادي في التطاول ويشير إلى مصير هؤلاء الذي سيكون تقريره على يده.

كما لمّح في موضع آخر إلى الوضعية الحربيّة التي يوجد بها المخاطَب في علاقة بالخطيب وذلك باستعارته فعل الرّميَ بالسَّهم للإشارة إلى ما سيكون من قمعه لهؤلاء "فرماكُم بي " وهذه العبارة تجعل المتكلم بمثابة السهم الموجّه إلى المخاطَب، الذي يتحوّل هنا إلى مُحَارَب يتلقّى ضربات العدُوّ المُحَارِب له.

- <u>صورة المخاطب عبر صورة الآخر المعاكسة:</u>

ونعني بذلك أن المتكلم يعمد إلى تمجيد النموذج الآخر المطلوب ليُفْهَمَ من خلاله ما هو مرفوض وفي هذه الحالة فإن المُخاطَب ضمنيّا يُمثّل النموذج المنبوذ المعاكس للصورة المُمَجّدة.

وتجلّى ذلك في أمثلة مُتعدّدة عبّر فيها المُتكلّمون عن الصفات المنبوذة بطرق مختلفة منها:

- اتّهَام المُخَاطَب بأنه سبب في ظهور صفات سيئة عند المُتَكَلِّم بسبب سوء صفاته ونرى ذلك في خطبة عثمان بقوله: "أخرَجْتُم منّي خُلُقاً لم أكن أحسنه ومَنْطقًا لم أنطق به."

وفي هذا المثال يضع المتكلم نفسه نقيضا للمخاطَب ويُنَزِّهُ نفسه عن العيوب التي هي نتيجة لعيوب المخاطَب المتأصّلة فيه.

- ابراز الخَطيب لأعماله الصّائبة وصفاته الحميدة في مُقابل صفات المُخاطَبين السّيّئة وهذا المسلك في التّعبير نراه في خُطبة على بن أبى طالب عند افتخاره بشجاعته مُلَّمحا من طرف خَفيّ إلى جُبْن المخاطَبين الذي كان قد صوّره في متن الخطبة، كما أنّ وصفه لتخاذل قومه عن الغزو وتهرّبهم من القتال في إطار التجاذب بين الدّعوة والرّفض قد خلق تقابلا بين الخطيب الدَّاعي (إذن القائم بالواجب غير المقصّر) والمخاطَبين (المتخاذلين قليلي الهمّة).
- التّهديد بعقاب شديد للمُخاطَبين والمُبالغة في تشديد ذلك العقاب. نرى ذلك في خطبة الحجّاج بن يوسف ، إذ التأكيد على عقاب المتخلّفين عن الحرب وتهديدهم بأقسى العقوبات وأشدّها بقوله: "وإني أقسم بالله لا أجِد رَجُلا تَخَلَّفَ بَعْدَ أَخْذِ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلّا سفكتُ دَمَهُ وأنهبتُ مَالَهُ وَهدمتُ مَنزله." إنما يعكس تفشّي صفة التخاذل في المخاطَبين وترسّخ عادة التّهرب من القتال عندهم وإذا كان تكثيف أدوات التأكيد في عُرف البلاغيّين يعني توقّع المتكلّم الإنكار والتّكذيب، فإنَّ المُبالغة في التَّهديد والعقوبات تدلّ على مُخاطَب لا يُنتظر منه الإذعان بسهولة، متمرّد متكاسل تصعب السّيطرة عليه ويعسر على المتكلّم توجيهه وتأطيره.

وكلما ازدادت صورة الخطيب مثاليّة ونَصَاعَةُ ازدادت صورة المخاطَب انحطاطًا وَفَظَاعَةً !

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

2) التّهم المُوجّهة للمخاطَب: (بين الموجود والمنشود)

إن مجمل الإحالات إلى المخاطَب في الخطب الثلاثة تضع المخاطَب في موضع اتهام يستدعي الحكم عليه ومعاقبته. وقد احتلّ خطاب الاتّهام الجزء الأكبر من الخطب المذكورة، ونجمل هذه التهم في محوريْن أكبريْن هما:

أ- السُّقوط الأخلاقي والديني

ب - التَّمرُّد وعدم الانضباط والنّقص في تقدير الأمور وادراكها.

أ- السقوط الأخلاقي والديني:

صوّرت الخطب الثلاث المُخاطب في صورة منحطّة أخلاقيّا ودينيّا وقد ظهرت هذه الصورة في سياقين:

- توصيف الأحوال السيئة للمُخَاطَب وذكر عيوبه الأخلاقية.
- تعهّده بالعقاب قصد إصلاح تلك العيوب و إحلال المحاسن المنشودة عوضا عنها

في السياق الأول تكثّفت في الخطب الصفات الأخلاقية والدينية فتجسدت في خطبة عثمان في صفة الجحود ونكران الجميل والنفاق في تعاملهم مع الخلفاء فمَعَ عمر وقسوته كانوا خانعين "فَدِنْتُم له" ومع عثمان أصبحوا ذوي جرأة "فتَجَرّأتُم عليّ ".

فضلا عن صفة الإسفاف والاهتمام بسفاسف الأمور والقيل والقال التي تجلّت من خلال نهي الخطيب لهم عن الحديث في شأن ولّاة أمورهم "فكفُّوا عنكُم ألسنتكُم و عيبكُم على ولّاتكم."

أمّا في خطبة عليّ بن أبي طالب فقد تمازج السقوط الأخلاقي بالسقوط الديني الذي بدا طاغيا على النص، فبدا المخاطبون في أسوإ صورة في هذا المجال: ضعيفوا العقيدة غير مدركين لقيمة الجهاد التي ما فتئ الخطيب يذَكِّرهم بها قولا و فعلا دون جدوى. وتَجَلَّى السُّقوط الدِّيني بجَلاء من خلال التَّذكير بتَخَلِّيهم عن نُصرة الحقّ. فَضلا عن قلَّة الوفاء لزَعيمهم فكان من نتيجَة ذلك نَدَمُ الخطيب لمعرفتهم وهي شهادة تُؤكّد اتّساع الهُوَّة بين الحَاكِم والمَحكُوم وبين المُتكلِّم والمخاطَب إلى الحدّ الأقصى: "لَوَدَدْت أنّي لم أَرَكُم ولم أعرفكم مَعرفةً - والله - جزَّت ندمًا وأعْقَبَتْ سدمًا."

وفي خُطبة الحَجَّاج بن يُوسف تَواتَرَت التُّهَم الأخلاقيَّة والدّينيّة وطغت على الخطَاب ، فمُنذ المَقطع الأوّلِ من النّص، وَسَمَهُم الخَطيبُ بفَساد الأخْلاق والنِّفاق والشِّقاق.

ونَجدُه بعد ذلك يُؤكِّد فكرة الانغماس في الفساد مُكثّفا مُعجَم الضَّلال والغِيّ "لأنَّكم أَوضَعْتُم في الفِتَن واضْطَجَعْتُم في مَرَاقِدِ الضّلال و سَنَنْتُم سُنَنَ الغِيّ."

وتَبرز صُورة الضّلال والانحراف عن "الحقّ" من خلال رَبط المُتكلّم هذا العَيْب بالعُقوبة التي تَوَعَّدَ بها المخاطَبين: "لَتَسْتَقيمَنّ على طريق الحقّ أوْ لأدَعَنّ لِكلّ رَجُل منكم شُغلا في جسدِهِ".

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

وامتدّت سلطة المُتكلّم إلى مجال الأدَب والتَّأديب بما في ذلك من إيحاء بسقوط تربويّ وأخلاقيّ يَضع المخاطَب في مَوضع التّلميذ مِن المُعَلِّم والابْن من الوَالدِ، يظهر ذلك في الوعيد الذي عبَّر عنه المُتكلّم قائلا: "لو بَقيتُ لكُم لأؤدّبَنَّكُم أَدَبا غَيْرَ أَدَبِ ابن أبيه».

إنَّ كثرة التّهم ذات الطَّابع الأَخلاقي و الدّيني تصبغ هذا النَّوع من النُّصُوص الخطابيّة بطابع وعظي يستثمره المُتكلم لإسباغ المشروعيَّة على ما يُقرّره في شأن المُخاطَب و يُبرّر به قسوَة العُقوبات المُنتظرة، بما أن هذا النَّوع من التّهم يُعَدُّ في عَصر الخُطبة من أخطر التُّهم وأوْجَبها للعقاب.

ب - التَّمرُّد والعصيان وقلَّة الانضباط :

يَسمُ هَذا النّمط من التّهم الخطاب بطابع سياسي، إذ يكون مَدَار التُّهم على كيفيّة تَعامُل المُخاطَبين مع "أولي الأمر" عموما ومع الخَطيب خُصوصًا، وفي هذا السِّياق يظهر المخاطَب في صورة سلبية بحسب وجهة نظر المُتَكَلّم ووفق ما يطلبه وينتظره من المخاطَبين.

فالمُخاطَب هنا ذاتٌ "غبيّة" على حسب عبارة الشّاعر التّونسي المعروف أبي القاسم الشابي، وهذه الصورة تكثَّفت في خطبة عثمان بن عفان حيث بدا المخاطَبون فاقدين تمامًا للإدراك لاعقل يقودهم ممَّا جعلهم عُرضة لتَأثير الآخرين "المعارضين" يتَّبعونهم ويكرّرون ما يقولون دون تفكير "يَقُولونَ وتَقُولُونَ". فيتحوّلون هم أيضا إلى مُعَارضين دون أن يكون لهم أيُّ نفع أو مصلحة من هذه المعارضة، بما أن مَن يَتَوَلّوْن إغواءهم لن يتمكنوا من تحقيق أيّ غرض من أغراضهم السِّياسية، فهم بحسب رأي الخَطيب معارِضون فاشلون.

"أحَبّ مواردهم إليهم النازح لا يشربون إلّا نغصًا ولا يُرْوَون إلّا عِكْرا."

"ولا يقوم لهم رائد قد أعْيَتْهم الأمور وتعذَّرت عليهم المكاسب."

و للمخاطبين نصيب من هذه الأوصاف مشتركين في ذلك مع أولئك الذين "يصطادون في الماء العكر"!

وتزداد الصورة الكاريكاتورية التي يرسمها الخَطيب للمخاطَبين وضوحا عند تصوير هؤلاء المخاطَبين الفاقدين للحكمة وحُسْن تقدير الأمور والرّجال في مهانتهم وخضوعهم لعمر بن الخطاب وتحوّلهم مع ابن عفان إلى أسود يجترئون عليه بسبب لينه في التعامل معهم، وهي صورة تجعلهم بمثابة العبيد أو الحيوانات التي تُضرب بكلّ عنف دون أن نُحرّك ساكنا أو تعتَرض على ذلك

وتظهر أكثر صفة مَذمومة عند الخطباء وهي تناول "أولي الأمر" بالقَول و النّميمَة و الانتقَاد واللّوم وهو ما جعل الخَطيب عثمان بن عفّان يأمرهم بغَضَب: "فكُفّوا عليكم ألسنتكم و عيبكُم على أولّاتكم." ، وهو بهذا الأمر الحاسِم يرسم الحدود بين الصّورة الكائنة والصّورة التي يجب أن تكون ومثل ذلك نراه في خُطبة الحجّاج بن يوسف الذي عبّر عن نفس الضّيق من تمرّد الرّعية وجُسّد ذلك في تصوّيره المخاطَب متطاولا مُتَحَدّيا رَافِعًا رأسه منغمسا في القيل والقال "فإيّاي وهذه الشَّفاعات والجَمَاعات وقالًا وقيلًا وما تقول."

في حين أكّد عليّ بن أبي طالب صفة العصيان والخذلان وعدم الطاعة المفسد للرّأي قوله: "و أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان."

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

والخذلان مرتبط بالتّواكل وقلّة المسؤوليّة والتخلّف عن نُصرة الوَطَن، نجد هذه الصفة تتكرَّر عند عليّ حين وصف ما وقع لقومه بسبب قلّة الوعي وضعف العزيمة " فتواكلتم و تخاذلتم حتَّى شُنّت عليكُم الغارَات." وفي قوله كذلك:

"حِينَ صِرْتُم غرَضًا يُرْمَى يُغار عليكم ولا تَغيرُونَ وتُغْزَوْنَ ولا تَغزُونَ."

وهذه الصُّورة نفسها تظهر من خلال مبالغة الحجّاج بن يوسف في الوعيد والتّهديد بالعقوبات التي ستترتَّب عن تخلُّف قومه عن محاربة العدوّ، ولولا تأكّده من ترسّخ صفة التَّواكل والادبار والجُبن في المخاطبين لما فعل ذلك.

II. جماليّات صورة المخاطَب عبر الخطاب الوصفي و السردي ودلالاتها :

إنّ البحث في جماليّات النّص من أؤكّد لوازم البحث في أدبيّة النّص عموما. وفي النّصوص الخطابية التي ندرسها تشكَّلت صورة المخاطَب عبر آليات التَّعبير الأدبي ، وهو ما يضيف قيمة فنيَّة للنّص الخطابي ، إذ يتولّى المُتكلِّم تشكيل صورة فنِّية يكون المخاطَب موضوعها و مرتكزها الأساسي. وقد حاولنا تقصّي جماليات صورة المخاطَب عبر مسلكيْن من مسالك إنشاء الخطاب وهما:

1) المسلك الوصفي التصويري

2) المسلك السردي

يتسنَّى لنا من خلال تأمّل هذين المسلكيْن التماس مَعَان ودلالات مختلفة متلبّسة بصورة المُخاطَب قد لا تكون بالضّرورة موافقة لما انتواه الخطيب وما قصد إليه. ومن خلال هذا البُعد الدّلالي للنَّص الخطابي "يكتسب النّص خاصيّة فنّيّة ، وَمِن، ثَمَّ، الجَمع دائما بين الصورة والأسلوب، والصورة والشاعريّة والجمالية."[11]

1) صورة المخاطَب عبر الخطاب الوصفي:

يتجلّى هذا الخطاب من خلال كل العبارات والمقاطع النَّصّية التي تؤدّي وظيفة وصف أحوال المخاطَب الثابتة أو المتحوّلة الظَّاهرة أو الباطنة.

ويكتسب الخطاب الوصفي في هذا النّمط من النّصوص الخطابيّة أهميَّته من كونه نابعًا من شعور المتكلّم وانفعاله، فغضبه و موقفه "السلبيّ" من المخاطَب هو الذي سيُلَوّن صورته بألوان ذلك الغضب و"الصورة اذا داخلت النّثر حسّنته وكثّفته."[12]

وهذا البُعد الانفعالي الذّاتي يجعل صورة المُخاطَب رمزيّة غير موضوعيّة، ذلك أن "الوصف التّصويري هو تعبير عن الحقيقة الواقعيّة بشكل انفعالي شعوري."[13]

---

[11] نجوى الرياحي القسنطيني، الوصف في الرواية العربية الحديثة، نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الطبعة الأولى 2007 ص. 117

[12] المرجع السابق ص. 123

[13] إيليا حاوي، فنّ الوصف، وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الثانية -1987 ص. 53

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

و قد ميّزنا في الخطب الثّلاث المدروسة بين نوعيْن من الصّور الوصفيّة:

- الصور الوصفيّة القائمة على المشهد التّصويري الكامل:

ونراها في الخطب الثّلاث، ففي خطبة عثمان بن عفان نجده يصوّر خضوع المُخاطَبين لعمر بن الخطاب من خلال مشهد يُجَسّد التّعامل المتعسّف مع المخاطَبين، فهو يَطَؤُهم برجله و يضربهم بيده فبدا المخاطَب هنا كُتلة مجسّدة بلا روح ولا إرادة، وتبدَّدت قيمَته الجمعيّة فالجمع هنا كالمفرد وهو ما يزيد في ضَالّة هذه الذّات و تصاغرها .

و نجد مثل هذا المسلك في اعتماد مشهد وصفيّ متعدّد العناصر عند الحجّاج بن يوسف وقد توسَّل بفعل "الرّؤية " ليرسم مشهدا رمزيّا دمويّا " إني أرى أبصارًا طامحة وأعناقاً متطاولة، و رؤوسا قد أينعت وحَانَ قطافها."

ثمَّ نجده يرفق هذا المشهد بمشهد أكثر دمويّة من خلال رسم صُورة مستقبليّة لهؤلاء: "وكأنّي أنظر إلى الدّماء بين العمائم واللّحى تَتَرَقْرَقُ."

وتَسِمُ هذه الصورة الخطابَ بطابع ملحميٍّ حربي يتأكّد من خلال الأبيات الشّعرية التي ألحقها الخَطيب بالفقرة الوصفية:

" قد شَمّرَت عن سَاقِهَا فَشَدُّوا وجَدَّت الحرب بكم فجدُّوا"

ولعلّ من وجوه الطّرافة أن تُرسَم صُورة المخاطَب عبر الأفعال المُسنَدة إلى المتكلّم، وهو مسلك من مسالك الإحالة على هذا المخاطَب إحالة غير مباشرة، كما أسْلفنا القَول في الفصل الأول من هذا المقال، فقد أنْشأ المُتَكَلِّم مشهدا تخييليّا يستشرف فيه الوضع الذي سيؤول إليه المُخاطب مستقبلا، وجعل هذا المشهد موضوع نبوءة حوّلتها "الرّؤية إلى يقين لا مُجرّد احتمال.

وشبيه بهذا المسلك الفنّي التّخييلي تشكيل وضع مخصوص للمُخاطَب - وإن كان أقلّ أدبيّة - نراه في خطبة عثمان وهو يتوعّد المُخاطَبين بقوله: "وقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشّرت لكم عن نابي."

وفي كلّ من المثالين السّابقيْن تتلوّن الصّورة بأجواء الحرب والقتال من خلال وضع الخَطيب نفسه في موضع المحارب الذي يستعدّ للحرب سواء بإسناد الأفعال الحربيّة إلى نفسه أو بتكثيف معجم السّلاح والإشارة إليه تصريحا وتَلميحا. ففي خطبة الحجّاج مَثَلا نراه - وقد سبقت إشارتنا إلى هذا المنحى التعبيري - يشبّه نفسه بالسّهم أو الرُّمح وهو ما يتبدّى لنا في قوله: "وإنّ أمير المُؤمنين نَثَرَ كنانته بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأشدّها مسكا، فوجَّهني إليكم، ورماكم بي." وفي هذا المثال يتحول الخطيب نفسه إلى سهم يُرمى به المخطَاب فينتقل بذلك من مُحاسبة المُخاطَب إلى مُحاربته. فضلا عن تكثيفه لمعجم السّلاح (كنانة، عود) ممّا يُقوّي الدّلالة الحربيّة لخطابه.

وإلى جانب الصّورة الحربيّة التي يظهر فيها المُخاطَب مُتَّهما بالعداء مُستوجبا للمُقاتلة تظهر صُورة المخاطَب الفاسد الموغِل في الفساد. يتجلّى لنا ذلك من خلال تصوير الحجّاج لمدى انغماس المخاطَبين في "الضَّلالة" بتوظيف مُعجم النّوم والاسترخَاء والرّاحة في قوله : "لأنكم طالما أوضعتم في الفتن و اضطجعْتم في مراقد الضّلال." واعتماد فعل الاضطجاع مُقترنا بفضاء النّوم "مرقد" يؤكد ألفة هؤلاء

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

للضّلال وتعايشهم معه بل إنّه أضحى مقرّهم الدّائم يأنسون إليه ويرتاحون لوجوده. وبهذه الصّورة المَجازيّة يُقدّم الحجّاج بن يوسف ذريعة لمنطق العنف والتّأهّب لحرب شرسة ضدّ "المُخاطَبين" بقدر تعدُّد مساوئهم وصعوبة إصلاحهم!

- الوصف عَبْر الصّور الجزئيّة مجازا و تشبيها

تتجلّى صورة المخاطَب عبر رمزيّة الأشياء الي يُشَبَّهُ بها أو من خلال وصفه وصْفًا مباشرًا بنُعوت مُعيَّنة.

ويهمّنا بصفة خاصة اعتماد المجَاز لما يحمله من طاقة تعبيريّة ومن دلالات رمزيّة و قد اشتركت النّصوص الخطابيّة المدروسة في معجم وصفِي تشبيهي يُكرّسُ مَا اتُّهِمَ به المخاطَب من تُهَم أخلاقيّة ودينيّة وسياسيّة. فوظّف الخُطباء، من أجل ذلك التشبيه بكثافة وكان المُشبَّه به دائما دالّا على سلبيّة المخاطَب ومواطن النّقص فيه فعلى سبيل المثال نجد عليّ بن أبي طالب يشبّههم بالأطفال والنّساء في قلّة العقل واللّيونة: "حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال." وهو تشبيه يرشح بالدّلالات الرّمزية السّلبية متمثّلة في قلّة العقل والإدراك وعدم القدرة على تحمّل المسؤولية.

أما الحجّاج بن يوسف فلم يكتف بتصويرهم في شكل الثّمرة الفاسدة التي يجب قطفها، بل جعل المُخاطَب يتلبس بجملة من الصفات التي رمزت إليها الأشياء التي شبّهه بها وذلك في سياق تهديده وتوعّده بقمعه وإطفاء جذوته في قوله:" أمَا واللهِ لَأَلْحُونَّكُم لَحْوَ العصَا، ولَأَقرعَنّكُم قَرعَ المُرُوَّة، ولأعصِبَنَّكُم عَصبَ الشَّلَمَة، ولأضربَنَّكُم ضَرْبَ غَرائب الإبِل." فكانت الصورة كالآتي:

المشبّه	المشبّه به	الفعل المُسلّط عليه
المخاطَبون	العصا	اللحو (التّثقيف والتّنجير)
	المُروّة (الصّخرة)	القرع (الضّرب الشّديد)
	السّلمة (النّاقة)	العَصْب (الشّد والرّبط)
	غرائب الإبل (الإبل المُتَمَرّدة)	الضّرب

فكلّ الأشياء التي شبّه المتكلّم بها المخاطَبين تشترك في الصّلابة والصّعوبة مما يستوجب أفعالا عنيفَة وقوّة زائدة في التّعامل معها.

يقودنا النّظر فى صورة المُخاطب عبر الخطاب الوصفي إلى استخلاص ثراء هذه النُّصوص بالدّلالات والأبعاد الرّمزية النَّاجمة عن الأساليب المعتمدة في التّعبير عن المُخَاطَب وتشكيل صورته تشكيلا فنّيا يَمنَحها قيمة إضافيّة تتجاوز قيمته المحصورة في تلقّي الخطاب والتّفاعل معه.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

2) صورة المخاطَب عبر الخطاب السردي

يُعدّ الخطاب السّردي أحد وُجوه الأدبيّة في النّصوص، لا سيما إذا انحرف عن مقصده الوصفي التّاريخي التّبليغي. و قد تجلّى الخطاب السّردي خاصة في خُطبة علي بن أبي طالب وتميّز بتبنّي المُتكلّم سرديَّة معينّة لأحداث ماضية كان فيها المخاطَبون الشَّخصية الغائبة الحاضرَة في المسار السّردي.

وقد احتلّ هذا الخطاب القسم الأكبر من الخُطبة وورد في سياق إظهار مسؤوليّة المخاطَبين فيما وقع لهم، و يهمنا من هذا المقطع البناء السردي الذي قام عليه ومنزلة المخاطب منه والصورة التي رُسمَت له من خلال ذلك المقطع.

تجلّى الخطاب السردي أوَّلًا في مسار حكائي يتولّى فيه المُتكلّم رواية أحداث وقعت في الماضي ومن المؤكّد أنّ المُتكلّم لم يَسع إلى تبليغ المُخاطبين بأحداث ووقائع مُعيّنة إذ أن هؤلاء كانوا شاهدين على تلك الأحداث وأطرافا فيها وإنّما كان ادراج السّرد لإضفاء جماليّة خاصّة على نصّ الخطاب واكسابه جملة من الدّلالات والأبعاد . وكانت بداية المقطع السّردي بما قبل وقوع الكارثة حين دعاهم عليّ إلى القتال فرفضوا فكان أن وقع المحظور و غزاهم العدوّ ونكّل بأهلهم وما خلفه ذلك من أسى وحسرة. أعقبت هذا المقطع السّردي فقرة يعود فيها المُتَكلّم إلى تفاصيل لم يذكرها في البداية متعلقة بما دار بيْنَه وبيْن أصحابه من حوار حول الغَزْوِ مُبيّنا ما يكشف تخاذل هؤلاء و تهرّبهم من الحرب.

وفي هذا المسار كان حضور المخاطَب شخصيّة مفعولًا بها، إذْ بغياب فعلها وعدم إقدامها على الغزو وقعت ضحية للغزاة. وبسبب مُنَاكَفَتهم و مُنَاورتهم وعدم تنفيذهم لِما طلبه زَعيمهم سقطوا في المَذلّة والهزيمة. وقد اقتصر الخطيب على تصوير صفات المُخاطَبين الأخلاقيّة المعنويّة دون الماديّة الجسديّة.

وفي المُقابل حضرت أقوالهم بكثافة في ردودهم على مطالب زعيمهم، ورفضهم الذهاب إلى الغزو متحجّجين في كلّ مرّة إمَّا بالبَرد أو بالحرّ.

وتميّز الخطاب السردي هنا بذاتيّة طاغية تظهر في اختيار العبارات الدّالة على أفعال المخاطبين (فتخاذلتم) وهي عبارات تكشف موقف المتكلّم وعدم موضوعيته عند رواية الأحداث و يبرّر ذلك من خلال تعليقه على الأحداث في نهاية سردها بالذّم و الهجاء والسّب للمُخاطَبين: "فَقُبحًا لكم وترْحًا."

والنّاظر في طريقة توظيف المتكلّم للمقطع السّردي يُبَيّن أثر ذلك المقطع في اكساب دلالة مخصوصة لصورة المُخاطَب تتراوح بين الهزل والجدّ فالجزء المُتعلّق بسرد الوقائع اتّسم بمأساويّته و نهايته المؤسفة التي عَبّر عنها الخطيب بقوله: "فلَو أنّ امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان مَلوما ، بلْ كان به عندي جَديرًا.". في حين كانت الطريقة التي عُرض بها الحوار بين المتكلم والمُخاطَبين هزلية ساخرة بدا فيها المخاطَبون في صورة كاريكاتورية ساخرة يظهر من خلالها تهرّبهم المفضوح من المواجهة وتكبّد المصاعب وتحمّل مشقة الحرب: " فإذا أمَرتُكم بالسّير إليهم أيّام الحرب قلتم: هذه حَمارة القَيظ أمْهِلنَا يَنسلخْ عَنَّا الحَرُّ، وإذا أمَرتُكم بالسّير في الشّتاء قلتم: هذه صَبَارَة

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

القَرّ أَمْهِلْنَا يَنسَلِخ عنَّا البردُ. كلّ هذا فرارًا من الحرّ والقَرّ. فإذا كنتم من الحرّ و القرّ تفرّون ، فأنتم والله من السيف افرّا." ومن هنا تولّدت مفارقة تضع النّص بين المأساة والملهاة وتجعل المُخاطب في كلتا الحالتين منهما مَلوما مسؤولا عن المأساة والملهاة معاً!

و إذا رُمنا تقصّي الدّلالات المتَلبّسة بصورة المُخاطَب المُتّهم فإنّنا سنكتفي بإثارة دلالة واحدة، إذ لايتّسع المجال لاستعراض كل الدلالات المُتَعلّقة بالمخاطَب وصورته، نقطة واحدة ستذكرها تتعلق بثنائيّة القوة والضّعف، فهل المخاطَب كما تتبدّى لنا صورته في هذه الخُطب، ضعيف أم قويّ؟ ونحن إذ نطرح هذا السّؤال إنّما ننطلق من المبدأ الذي أشرنا إليه في مُقدّمة المقال وهو أنّ الدَّلالات التى يمكن أن تنبثق عن النّص الأدبى ليست بالضرورة موافقة لمقاصد المتكلم المؤلف لذلك النّص ونواياه في خصوص جمهور المُتلقّين للخطبة على الحقيقة وهذا المبدأ سمح لنا بقراءات وتأويلات مختلفة لصورة المُخاطَب ودلالاتها.

إذ تبيّن لنا أنّ كل الطُّرق والأساليب التي عمد الخطباء إلى اعتمادها، من أجل تحقير المُخاطَب وتصويره في أدنى صورة إنّما هي في الحقيقة تكشف قوته و مركزيّته وقدرته. كما قال عثمان - على دفعه إلى استعمال منطق لم يكن ليستعمله لولا صلابة المُخاطَب وقدرته على الصّمود والتحدّي فبقدر قُوّة المُخاطَب وعناده، كانت قُوّة الخطاب ومتانته.

الخاتمة

تُمَثّل النصوص الخطابية التي اخترناها نماذج لدراسة صورة للمُخاطَب المُتّهم مُخالفة للسائد في النّصوص الخطابية الأخرى، إذ اختصّت النُّصوص التي اخترناها بضعف القيمة الحجاجيّة في مقابل تنامي القيمة التأثيرية العاطفية، وبِكَوْن المخاطَب في وضع اتّهام مولّدا لأدبيَّة النص الخطابي وقيمته الفنيّة وهو ما يُفضي بنا إلى امكانيّة اعتماد هذا المدخل البَحثي المُتعلّق بلمُخاطَب منطلقا لمبحث أجناسي يُعْتَمَدُ فيه على وجوه تشكّل المخاطَب وصورته في النص الخطابي لتمييز صنف مُعيّن من النصوص الخطابية غير الأصناف المتداولة عند الباحثين إلى هذه اللحظة. وإذا كنّا قد اتخذنا المُخاطب موضوعا للكشف عن جماليّة هذا النّمط المخصوص من الخطب فإنّ ذلك لا يعني حصول المكوّنات النصّية الأخرى في الأدب الخطابي على القدر الكافي من البحث والتنقيب.

فما أشرنا إليه منذ بداية هذا المقال حول غياب القراءة الأدبيّة للأدب الخطابي ونقص البحوث المتعمّقة في هذا المجال ينطبق بنفس القدر على عناصر الخطبة كلها انطلاقا من الخَطيب في دوره التلفّظي المخصوص وصولا إلى التّشكيلات الفنّية المختلفة المُتجلّية عبر النّص الخطابي في كلّيته.

وهو ما يدعونا إلى مزيد التَّفكير في وجوه الأدبيّة في النّص الخطابي ومدى استجابة التَّصنيفَات المُعتمدة لطبيعة هذا النّص وتنوّع وجوه قراءته.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

- **المراجع:**

- بن رمضان، صالح. (2001). الرسائل الأدبية مشروع قراءة انشائيّة. منوبة، تونس: منشورات كلّية الآداب.
- الجاحظ، أبو عثمان. (د.ت). البيان والتّبيين. بيروت، لبنان: دار مكتبة الهلال.
- حاوي، إيليا. (1987). فنّ الوصف وتطوره في الشعر العربي. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني. الطبعة الثانية.
- صفوت أحمد، زكي. (د.ت). جمهرة خطب العرب الجزء الأول. بيروت ، لبنان: المكتبة العلمية.
- كيليطو، عبد الفتاح. (2006). الأدب والغرابة، المغرب: دار توبقال للنشر. الطّبعة الثالثة.
- القسنطيني، نجوى الرياحي. (2007). الوصف في الرواية العربية الحديثة. تونس: نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. الطبعة الأولى.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved